العُودُ والحاجزُ وهاجسُ البُزُق

خالد جبران

ضاحية البريد،[1] ظهرًا. أحدُ سبوت العام الأول للألفيّة. عام الانتفاضة الثانية أو عساها الثالثة أو الأولى، لا أدري. سيل السيارات من حولي آخذٌ بالتباطؤ. وهذا يعني أنّ تماسّاً ما حاصلٌ، وأنّ رام الله تزداد ابتعادًا، وأنّ دَرْسَ البزق المحدَّد لرامي[2] بعد ساعة غدا حلمًا أو أمنيةً متقلقلةً على كفّ عفريت. لله ما أبعدَ البلدةَ الواقعة على مسافة عشرين كيلومترًا من بيتك، حتى لو امتطيتَ إليها أحدثَ ما أَبْدع الألمانُ من سيّارات واستويتَ على ظهرها ثم تذكّرتَ نعمة ربّك وقلتَ ﴿سبحانَ الَّذي سَخَّرَ لنا هذا وما كنّا له مُقْرِنِينَ﴾.[3] لحظاتٌ وتنكشف حقيقةُ هذا التماسّ. وكالعادة فإنّ سيارة الجيش الإسرائيليّ تَمْنع باقي الخلائق من السير في الاتجاهين لغايةٍ لا يعلمها إلا اللهُ والجيشُ.

أَلْتمس لي ولسيارتي مكانًا بين عشرات السيّارات الحائرة. أَشتم الجنودَ والظروفَ والأوضاعَ في سرّي وجهري، وأعاود الاستسلامَ لأنغام الطنبور يتنفّس بخبثٍ من الكاسيت.

لله درُّكَ يا جميل الطنبوري،[4] من أين أتتكَ ألحانُ «سماعي شدّ عربان»[5] يا ابنَ الكلب؟[6] أهي همسٌ من إنسٍ أم من جانّ؟ أتكون من «هاذر؟»[7] ألا تُحْبطكَ الانتفاضةُ؟ تُجفِّفكَ؟ ألا يَمْنعك الحاجزُ؟ يَقْهرك؟ أقادرٌ غيرُك على تلحين مثل هذا السماعي؟ أنا مثلاً؟ لا أظن! هاذر لا تَعْرفني. ثم إنّ هذه الحواجز تنأى برام الله القريبة وتَقْطع التواصلَ بين الإنس، فكيف بالجانّ؟ ﴿فبأي آلاءِ ربِّكما تُكَذِّبانِ﴾[8] يُعْجبني غموضُ لحن جميل الطنبوري: فهو يُنبِئُكَ بالكارثة بعبارةٍ حانقةٍ وأنيقة، مرهفةٍ وعميقة، بعيدًا عن البساطة المصطنعة، وليس لحنُه بالسهل الممتنع. تُرى، أَأَنْبَأَه طنبورُه بالكارثة الوشيكة عام ١٩١٧؟[9] أَأَنْبَأَه بموته المبكر وبإخراج ألحانه واسمه عن قوانين الطوارئ المستحدَثة في تركيا الفتاة؟ رُبَّما.. ومِنْ أين هذه المقدرة على التنبؤ التي تميِّز الآلات ذاتَ الأوتار المعدنيّة مثلَ البزق والطنابير، خلافًا للعود والقانون وذواتِ الأوتار غيرِ المعدنيّة؟

أنا أحبّ العودَ وأطمئنّ إليه؛ ففيه يُعشِّشُ صوتُ والدي ورائحةُ تبغه وعَرَقِه. كان عزفُه للعود أوّلَ صوتٍ أَلِفَتْهُ أُذني. والعودُ يَحْمل إليّ دفءَ الأب، وعن بُعدٍ، لكنَّه بحكمته ووَقاره الأَپولونيَّيْن[10] يعصى الاستسلامَ للهواجِس: فهو يتنبّأ بأثرٍ

١ ـ حيّ سكنيّ على الطريق بين القدس ورام الله. وهو مُعرَّف بأنّه داخل منطقة «ب،» أيْ أنه خاضعٌ للسيطرة الأمنيّة الإسرائيليّة.

٢ ـ كُنيةٌ شاملةٌ لطلاّب الكاتب في رام الله.

٣ ـ سورة الزُّخْرف.

٤ ـ مُلحِّنٌ وعازفُ طنبور تركيّ شهير، توفِّي عام ١٩١٧.

٥ ـ سماعي: قالب موسيقيّ تركيّ. شدّ عربان: المقام الذي لُحِّنَ به هذا السماعيّ.

٦ ـ للتحبُّب، من شدّة الإعجاب.

٧ ـ قرينة (شيطانة) النابغةِ الذبيانيّ.

٨ ـ سورة الرحمن.

٩ ـ حاول أتاتورك تحويلَ تركيا دولةً أوروبيّةً، فحارب جميعَ العوامل الشرقيّة والعربيّة والإسلاميّة إلى درجةِ سَنِّ قوانين تَمْنع تداولَ الموسيقى الشرقيّة ـ بما في ذلك أعمالُ جميل الطنبوري وآخرين.

١٠ ـ نسبةً إلى الإله الإغريقيّ أپولو.

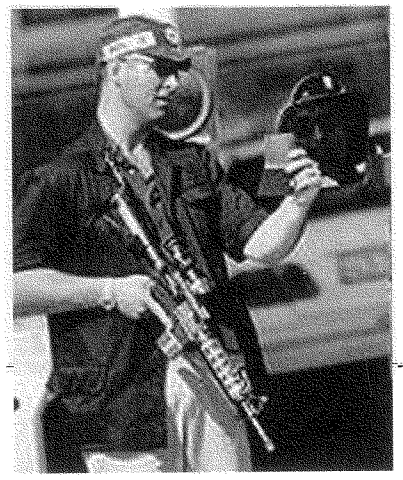

تقف ساعةً أو أكثر لتتحرك عشرةَ أمتارٍ أو أقلّ، حسب مزاج الجنود وسبحانيّتهم

رجعيّ فقط، ولا رغبةَ له بالشقاوة والزعرنة. أما البُزُق فَحَدِّثْ ولا حَرَجَ: إنّه ديونيسيٌّ طبعًا وتطبّعًا، ولا تجد أكثرَ منه نهمًا وشهوانيّةً، ولا أشدَّ رغبةً في تسلُّق جدران الوقت والوضع، ولا أكثرَ تناغمًا حالَ توجُّسِه أمرًا جللاً. في المغرب العربيّ قبل الانتفاضة بشهر كان تجاوبُهُ مع التشيللو فظيعًا في توضيبٍ لِلَحْن «وَيْنُنْ؟ وَيْن صوانُنْ وَيْن وجُوهُنْ وينُنْ؟ صار في وادي بيني وبينُنْ آه.. وَيْنُن؟» لدرجةِ أني شعرتُ بعواطفي تَخْنق حنجرتي أثناء العزف. لا أدري كيف تَوَجَّسَ البُزُقُ يومَها، ولا كيف نجح في استحضار ذلك الجو المأساويّ على ليلِ طَنْجَةَ الهادئ والغارقِ في السكون الأندلسيّ. حتى زميلي استغرب مني إصرارَ البزق على توجس الشرّ:

«دعك من هذه 'الفلسطينيات' يا رجل! ما لَكَ ولِـ 'وَيْنُن؟' وادي بينك وبين مَنْ يا رجل؟ تعال نشرب البيرة.. أنظرْ، أنظرْ هذه الحسناء المغربيّة. لا تتشاءم. لحاكَ اللهُ ما أنكَدَك! ثم ما سبب إصرارك على أداء 'شوارع القدس العتيقة' في المهرجان السابق غداةَ فشل كامب ديڤيد الأخير؟ ولماذا اتّخذتَ من عرض 'مزامير' سلاحًا لمهاجمة كلينتون وحريمِه ومَنْ لَفَّ لفَّهم؟ ها؟ لا تقل لي إنّك ستحارب أمريكا وإسرائيل بالبُزُق. ثم.. ما دخل السياسة بالموسيقى أصلاً؟»

تتحرك بعضُ السيارات أمامي فأَسْتَبْشر خيرًا. أتقدَّم بسيّارتي خمسة أمتار لتتوقف مرةً أخرى. أجول بناظِرَيَّ: المناظر المعهودة، وجوه أناسٍ محشورين داخل سيّاراتهم مثل السردين، كميّة هائلة من علب السردين تقف ساعةً أو أكثر لتتحرك عشرة أمتار أو أقلّ حسب مزاج الجنود وسبحانيّتهم. أَشْعر داخل سيارتي ـ وهي تحويشةُ عمري ومدعاةُ فخري ـ بالعجز. ماذا نفعتني هذه السيّارة؟ محرّكٌ ذو قوة مائة حصان أو ألف بغل؟ ها أنا عاجز عن التقدم مائة أصبع. أتذكّر الشاعر، صديقي اللدود، المنتسِبَ إلى الشُّعوبيّة، حين مازحني: «ما دمتَ تؤْمن بالقوميّة العربيّة يا ابن النَّصْرَانيّة فلماذا اقتنيتَ سيارةً من صُنْع الفرنجة يا شاطر؟ اِمتطِ دابّةً عربيةَ الصنيعة، إذن، ها.. ها.. ها.. أو ربما حاجةً أخرى من فخر التكنولوجيا القحطانيّة، أرجيلةً شاميّةً مثلاً. هي..هي..هي.»

على يساري ألْحَظُ سيارةَ مرسيدس فخمةً، أو هي كما يُدَلِّعونَها في أنحائنا «شبح.» هذه «مطيّةٌ» ألمانيّة حقيقيّة، وسعرُها يَبْلغ خمسةَ أضعاف سعر مطيّتي بلا أدنى شك. من أين يَحْصل الناسُ على مثل هذه الأموال؟ أُراقب وجهَ السائق شزرًا: يبدو لي ثريَّ حربٍ، لعلّه من أثرياء الانتفاضة الأولى؟ أو من أثرياء ثورة ١٩٣٦؟ لا أدري. لكنه قطعًا لا يَشْعر برامي، ولا تهمّه هواجسُ البزق، ولا خاطَبَه جميل الطنبوري في منامه البتّةَ. غيظي من الشبح الحديث والفخم يجعلني أَكْره الرجل («ما تمتَّع غنيٌّ إلا ممّا جاع به فقير.»)[1] ولكنْ ما أَغْنَى عنه مالُه وما نَهَب؟ ها هو قابع مكانه مثلي ومثل الآخرين، إلى ما شاء الجيشُ، حتى لو كان «شَبَحُه» بقوة مليون حصان. تَنْبس شفتاي بالكلمات «وشو يعني؟.. طُزّ!» يراني أحرّك شفتيّ، فيردّ بإيماءةٍ من رأسه أن: «أهلاً وسهلاً.»

من أين اكتسَبَ شعبُنا هذه الموهبةَ العجيبةَ على الألقاب والتدليع؟ أتذكّر أنّ أهل رام الله ـ البلدة التي أنا قاصدُها إذا ما استطعتُ إليها سبيلاً ـ يُطْلقون لقبَ «فراشة» على طائرة الاستكشاف

١ ـ عليّ بنُ أبي طالب.

العُودُ والحاجزُ وهاجسُ البُرْق

الإسرائيلية، التي تحدِّد المواقعَ المستهدفة داخل مدينتهم تسهيلاً لمهمّة «فراشات» أخرى تأتي فتقصفها! «فراشة» يا عالَم؟! ومِنَ العجب أنّ رامي أشار بيده إلى الطائرة مبتسمًا وقال «ها هي الفراشة يا أستاذي؛» قالها والفخرُ يَغْمره لقدرته على تشخيصها، وكأنّه عاثرٌ للتوّ على حَجَر الفلاسفة. أمره غريب، رامي هذا: أُعلِّمه البرقَ والعودَ والموشَّحَ كي يَشْعر بعَظَمَةِ جذره الضاربِ في هذه الأرض، وتأتي «الفراشةُ» لتُطَهِّر الأرضَ نفسَها منه ومن جذره ومنّي. أشْعر فجأةً بانقباضٍ مبهم؛ أغدو «على قلقٍ كأنّ الريحَ تَحتي.»[1] ماذا لو سبقتني «الفراشةُ» إليه وأنا مصلوبٌ هنا قرب هذا «الشبح» إلى أبد الآبدين؟ ترى، هل أراه ثانيةً؟ وما الحكمة في أن تعلِّم البرقَ لفتًى مستهدَفٍ من أقوى «فراشات» الرجل الأبيض؟ لا تستهترْ بالبُرْق وقدرتِه على مقاومة العِدى، بدليل أنهم قَصَفوا خلال ستة أسابيع ثلاثَ قاعات موسيقيّة في رام الله وبيت لحم وبيت جالا كنتُ قد عزفتُ فيها، حتى انتابني شعورٌ أنّ موسيقاي هي المستهدَفُ غيرُ المعلَنِ لهذا القصف!

أَذْكر جدالاً ساخنًا احتدم بيني وبين «قانْشِه» في سيّارتي على طريق بيت جالا حين ادّعى أنه يلحّن موسيقى أرمنيّةً مستخدِمًا تقنيّةَ الدوديكافونْيَة،[2] في حين أوضحتُ له ـ وبالقول الفصل ـ أنّ استخدام تقنيّات شونبرغ والدوديكافونْيَة تحديدًا يزيل حتمًا كلَّ السمات والملامح العِرْقيّة عن أيّ موسيقى. عبثًا حاول المسكين أن يدافع عن رأيه مستخدِمًا المفرداتِ القليلةَ التي يُتْقنها بالإنكليزية، ورحتُ أنا أفنِّد آراءه بشدّة، لا بل اتهمتُهُ بتغريب الموسيقى الأرمنيّة الأصيلة بدافع كُرهه للأتراك! توقفتْ بنا سيارتي يومَها بعنف مفاجئ إذ تعرقلتْ بحاجز من حجارة، لنجد أنفسَنا محاطين بالجنود الشاهري الأسلحة من جهة وبالشباب الشاهري الحجارة وزجاجات المولوتوف من الجهة الأخرى، إضافةً إلى مصفَّحتيْن جاثمتيْن على مدخل «قُبَّة راحيل»:[3] قبر راحيل زوجةِ يعقوب المدعوّ إسرائيل! لا أدري إنْ كانت نفسُ راحيل المذكورة في الإنجيل هي «صوتٌ سُمِعَ في الرامةِ. نوحٌ وبكاءٌ وعويلٌ كثير. راحيل تبكي على أولادها ولا تتمالك أن تسلو فقدانَهُم.»[4] لطالما أثارت هذه العبارةُ حاجتي إلى البكاء، ولشدّ ما حاولتُ استحضارَ وجه راحيل إلى مخيّلتي: رأيتُها معلِّمتي من الصفّ الثالث الابتدائيّ؛ فهي الأخرى فقدتْ طفلها رضيعًا.

مضت أربعون دقيقة على وقوفي هنا. لم أعد أسمع أصوات المُحَرِّكات من حولي. أرى أناسًا على وشك الانفجار أو الانتحار أو الانعصار صبرًا أو قهرًا. صمتٌ ثقيلٌ يُغَلِّفُ صوتَ الشيخ محمد رفعت اذ يغزو فضاءَ سيّارتي من الكاسيت: ﴿وَإِذْ قالتِ الملائكةُ يا مَرْيَمُ إنَّ اللّهَ اصطَفَاكِ وطَهَّرَكِ واصطفاكِ على نساءِ

---

١ ـ أبو الطَّيِّب المتنبي.

٢ ـ تقنيّةٌ تلحينيّةٌ تبلورتْ في عشرينيّات القرن الماضي على يد الملحِّن النمساويّ آرنولد شونبرغ. وهي تقضي بإلغاء النظام المألوف للسُّلَّم الموسيقيّ، وتحتِّم على الملحِّن معالجةَ النغمات المختلفة بالتساوي، وتَمْنع إكسابَ أيّ نغمةٍ مركزيّةً ما أو أفضليّةً على غيرها لكي تَضْمن عدمَ نشوء إيحاءات سُلَّميّةٍ أو نظاميّة تقليديّة.

٣ ـ مكان مقدّس لليهود يقع على مدخل بيت لحم وبيت جالا.

٤ ـ العهد الجديد، إنجيل متّى، أصحاح ١٨/٢.

«لا تقلْ لي إنك ستحارب إسرائيل وأميركا بالبُزق؟!» (صورة لخالد جبران وسهيل خوري)

العالمينَ يا مريمُ اقْنُتي لربِّكِ واسجُدي وارْكَعِي مع الراكعينَ﴾.[١]
بروحي أنتَ يا شيخ محمد، عليك ينطبق قولُ الرسول ﷺ: «لقد أُوتيتَ مزمارًا من مزامير آل داود.» إنّ خوف هيرودس من رضيع مريم دَفَعَه إلى ذبح أطفال بيت لحم قبل ألفيْ عام، فبكت راحيل. تُرى، هل عاودت النوحَ والعويلَ الآن، أم عساها تتمالك أن تسلو فقدانَ أولاد «هاجر؟» وبالمناسبة، ما هي مَسْألة «هاجر» بالضبط؟ أهي خوفُ سارة على طفلها من طفل الجارية، أم أنّ للقضية أبعادًا أخرى؟ سارة خافت على رَجُلِها من جمال العيون العربيّة، فطردتْ هاجرَ وابنَها وشرَّدَتني إلى ستين داهية. أَوَيُطالبنا كلينتون اليومَ بالتنازل عن حقوق جدّنا إسماعيل بسبب التقادم...؟

«والأنبياءُ هناكَ أيضًا يَعْبُرون
وينصتونَ لصوتِ اسماعيلَ يُنشِدِ: يا غريبُ
أنا الغريبُ وأنتَ مثلي يا غريبَ الدار
عُد يا عودُ... بالمفقودِ، واذبحني عَلَيْكَ
منَ الوريدِ إلى الوريدِ.»[٢]

آه يا محمود.. بأبي أنتَ وأمّي! أَتَرى يا محمود كيف أنّ العود يعصى الاستسلام للهواجس فيتنبّأ بأثرٍ رجعيّ فقط؟

من هو الذَّبيحُ إذًا؟ إسماعيل أم إسحق؟ أم لعلّهما ذبيحان؟! ما أفظعَ تصريف كلمة «ذبيح» للمثنّى! هل المثنى من مميِّزات العربيّة وحدها؟ أنا أحب المثنّى، ولطالما فاخرتُ به معارفي من أبناء اللغةِ الأخرى. ويبلغ المثنّى أَوْجَه، حسب رأيي، في هذا الكلام:

فَلَو أَنّا على حَجَرٍ ذُبِحْنا   جرى الدَّمَيَانِ بالخبرِ اليقينِ

الشاعر مجهول، ولعله «إسماعيل.» إخالُهُ يناشد أباه قبل أن يخوض «روليت» الذبح قسرًا! وما زلنا نتوارث إنشاده على أسماع أحفاد الآخر حتى يومنا هذا.

أرى امرأةً غايةً في الجمال تسير على مفرق «الرام» المكتظّ بالجنود. أتذكّر صديقي الذي قال: «لاحظِ المفارقةَ، في أنّ أيَّ امرأة تمشي أو تقف في هذا المكان الفظّ تبدو فجأةً غايةً في الجمال والأنوثة.» لكنّ هذه المرأة جميلةٌ حقًّا، ولعلّها «هاجر.»

فجأةً، ومن دون إنذار ولا مؤشّر، تحصل الأعجوبة. إخَالُ السماء انفطرتْ عن هاويةٍ مربّعة. بدأت الحجارةُ تنهال بالمئات على الجنود، الواقفين والقابعين داخل «الجيب» العسكريّ. من أين تأتي كلُّ هذه الحجارة؟ لا أتمكّن من تحديد المصْدر، لعلّها حجارةٌ من سِجِّيل؟ بدأتْ جلبةٌ فظيعة، ضوضاءٌ وصراخٌ وبكاءُ أطفالٍ ونساء، حالةٌ عارمة من الهلع. ثم بدأ إطلاقُ النار العشوائيّ. يستولي عليّ خَوْفٌ مؤلم. حلقي جافٌّ ومتصدِّع. العَرَق يَنْسَلُّ على ظهري كأفعى. ماذا لو، وماذا لو، وماذا؟! لا قدَّر الله.. كيف سيكون وقْعُ الخبر على رامي؟ هل سيُبَلِّغ هاجس البزق أم تراه سيفضّل «الشبح»؟ لا قدَّرَ الله.. وأمي؟ مَنْ سَيَنْعاني إليها؟ أتوق لو خاطبها إرميا النبيُّ: «جُزِّي شَعْرَكِ واطْرَحيه وارفعي على الهضاب مرثاةً...»[٣] هيهات هيهات! الحجارة تنهال مثلَ زَخِّ المطر، صوتُ ارتطامها بالسيارات يكاد يطغى على العيارات الناريّة. أشُمُّ رائحة البارود. أحبّها، فأشعر

١ ـ سورة آل عمران.
٢ ـ محمود درويش، **لماذا تركتَ الحصانَ وحيدًا**، «عُود إسماعيل.»
٣ ـ العهد القديم، إرميا، أصحاح ٢٩/٧.

العُودُ والحاجزُ وهاجسُ البُزُق

بالذَّنْب. أرى الناس يَهْجرون سياراتهم ويَهْربون حاملين أطفالهم. حتى سائق «الشبح» البغيض يَهْجر سيارته ويهرب: طبعًا يا عمّ؛ فأنت لم تدفع ثمنَها من جَيْبك! الحقيقة أنّي خائفٌ حتى الموت. أودّ لو أهرب، لكنْ إلى أين؟ وسيّارتي، كيف أتركها؟ ورامي؟ بأبي أنتَ وأمي، هل أراكَ ثانيةً؟ ثم مِنْ أين هذه المقدرة على التَّنَبُّؤ التي تميِّزَ الآلاتِ ذاتَ الأوتار المعدنيَّة مثل البزق والطنابير؟ يؤْمن العرب أنّ القَصَبَ يحنّ أبدًا إلى منبته الأصليّ، وهذا ما يضفي على الناي أنينَه المميَّز. والحنين هو صوت الناقة إذا اشتاقت إلى وَلَدِها. والبُزُق؟ لا أدري.. لعلّه يَحنُّ إليكَ، لعلّ هاجسَهُ نابعٌ من طول انتظاركَ، لعلّها موسيقاكَ ولغةُ غَدِك. خذه إذًا، داعبْ عُنُقَهُ الطويل، إذا مِتُّ، واعْزِفْ:

فَلَوْ أنَّا على حجرٍ ذُبحنا   جرى الدَّمَيَانِ بالخبرِ اليقينِ

لا أظنّ الإدارة ستسمح بتأبينٍ رسميّ وبتعطيلِ الدراسة يومًا كاملاً؛ فهذا بالطبع أمرٌ غير مقبول حسب خطط الموازنة السنويّة. لا بأس، فليكن تأبينًا غيرَ رسميّ، لا ضَيْر. يكفيني أن تقوم بعد انتهاء المراسيم بإنشاد هذا الكلام:

كفى حَزَنًا بِدَفْنِكَ ثُمَّ إنّي   نَفَضْتُ تُرابَ قَبْرِكَ من يَدَيّا
وكانت في حياتِكَ لي عِظاتٌ   وأنْتَ اليومَ أوعَظُ مِنكَ حَيّا.[1]

خالد جبران

أستاذ العُود والبُزُق في رام اللّه. من مواليد الرامة بالجليل، ويقيم في القدس.

١ ـ أبو العتاهية.